صوتُ درويش وسوطُه!

«١»

في ليلة الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ انطلق الرصاص من كل حدب وصوب في قرية «البروة» التي تقع شرق عكا على مسيرة ٩ كيلومترات منها، ويعيش بها ١٤٦٠ نسمة.

لم تميز طلقات الرصاص بين صغير أو كبير، ووجد الطفل ذو السنوات السبع نفسه يعدو في اتجاه أحراش الزيتون السوداء مشيًا على الأقدام حينًا، وزحفًا على البطن حينًا، وبعد ليلة مليئة بالذعر والعطش وجد نفسه مع أسرته في بلد اسمه لبنان!

الطفل الذي سمع صوت الرصاص، وجرى في الظلام في الأحراش، لم يعد يهاب الموت الذي كان يطارده في هذه الليلة، وظل هذا المشهد محفورًا في ذاكرته، لكنه لم يجعل روح اليأس تتسرب إلى نفسه، مثلما تسربت إلى من نفوس مَن قبله، بل صار حاملا لشعلة الأمل، وحب الحياة، وقد بدا ذلك جليًا في كل أعماله ليكون بمثابة موجة ثورية على اليأس الذي أصاب الشعراء في الوطن العربي وتحديدًا في فلسطين المحتلة عقب نكبة ١٩٤٨.

كان ذلك الطفل الذي رأى الموت بعينيه هو محمود درويش الشاعر الذي بعث بالأمل، وبثَّ التفاؤل، ولم يقنط، ولم يفزع، ولم يجزع حين تعرض للنفي خارج وطنه، وحين أُلقيَ في

غياهب سجون الاحتلال للمرة الأولى في عام ١٩٦١. ظل كما هو باحثًا عن الأمل وباعثًا له، وخرج ليكتب ديوانه الأول «أوراق الزيتون»، وقال مخاطبًا العدو:

سجِّل.. برأسِ الصفحةِ الأولى
أنا لا أكرهُ الناسَ
ولا أسطو على أحد
ولكنـي.. إذا ما جعتُ
آكلُ لحـمَ مغتصبي
حـذارِ.. حذارِ.. من جوعي
ومن غضبي

المدهش أنه رغم روعة وبلاغة إحساس هذه القصيدة، فإن محمود درويش كان يغضب بشدة حين يختزله البعض في هذه القصيدة أو غيرها، خصوصًا أنه كان يعتبرها مجرد بداية لشاب لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره، رغم أن هذا الديوان لم يكن ديوانه الأول، فأول ديوان مطبوع له كان يحمل اسم «عصافير بلا أجنحة»، لكن درويش كان يرى أن هذا الديوان لا يستحق الوقوف أمامه!

جرأة غير مسبوقة أن يتجاهل شاعر عمله الأول ويعترف بضعفه، ويعتبره مجرد محاولات لم تنجح، بل إنه لا يذكر متى بدأت بالضبط محاولة كتابة الشعر، ولا يذكر الحافز المباشر لكتابة «القصيدة الأولى» في حياته الشعرية، لا يذكر سوى أنه حاول في سن مبكرة كتابة قصيدة طويلة عن عودته إلى الوطن، لكنه يقول عنها «أثارت سخرية الكبار ودهشة الصغار»!

«٢»

ولكنـــي تعرفــت عــلى شــعر محمــود درويــش بالصدفــة حــين دخــل أســتاذ اللغــة العربيــة إلى فصــل أولى أول يبحــث عــن طالــب يمثــل المدرســة في مســابقة إلقــاء الشِّــعر عــلى مســتوى الإدارة التعليميــة، فوقفــتُ ووقــف زميــل لي، لكنــي لم أدرك معنــى كلمــة إلقــاء التــي قالهــا الأســتاذ، لذلــك انتظــرتُ حتــى انتهــى زميــلي مــن إلقــاء قصيــدة «النيــل» التــي كنــا ندرســها في الشــهادة الابتدائيــة، وفعلــت نفــس مــا فعلــه زميــلي وألقيــت نفــس القصيــدة التــي لم أكــن أحفــظ ســواها!

فاختــارني الأســتاذ لأمثِّــل المدرســة في المســابقة التــي لم تفــز بهــا المدرســة منــذ ١١ عامًــا، واختــار لي الأســتاذ قصيــدة أخــرى لألقيهــا في المســابقة، وكانــت هــذه القصيــدة هــي قصيــدة «عــن إنســان» لمحمــود درويــش، كانــت المــرة الأولى التــي أســمع فيهــا اســمه، وكانــت كلــمات القصيــدة بالنســبة إلى تلميــذ في أولى إعــدادي تحتــاج إلى شرح وتفســير، وقــد أفــاض الأســتاذ في شرحهــا حتــى صرت أحفظهــا عــن ظهــر قلــب، بــل إننــي مــا زلــت أحفــظ طريقــة إلقــائي لهــا حتــى الآن.

وفــزتُ بالجائــزة، وحصلــت عــلى شــهادة تقديــر، وشــهادة اســتثمار قيمتهــا عــشرة جنيهــات، وتعلقــتُ بمحمــود درويــش، وصرتُ أبحــث عــن كل أعمالــه، وقــرأتُ أغلــب أعمالــه قبــل أن أحصــل عــلى الشــهادة الإعداديــة، وصــارت ذائقتــي الشــعرية لا تحتمــل أنصــاف الشــعراء!

ولم يعــد محمــود درويــش بالنســبة إليَّ مجــرد شــاعر، بــل صــار هــو الشِّــعر ذاتــه لســنوات، رغــم أني كنــت أقــرأ جاهــين والأبنــودي

ونـزار قبـاني وأمـل دنقـل، بـل إن القـراءة الوحيـدة التـي لا أبـذل فيهـا أي جهـد ولا يصيبنـي فيهـا أي كلـل أو ملـل هـي قـراءة الشـعر، فـأي ديـوان مهـما كـبر حجمـه لا يمكـن أن يسـتغرق منـي أكـثر مـن ليلـة واحـدة في قراءتـه، بـل إن عـددًا كبـيرًا مـن دواويـن الشّـعر التـي أشـتريها كنـت انتهـي مـن قراءتهـا قبـل أن أصـل إلى البيـت، والفضـل الأول في كل هـذا هـو لمحمـود درويـش، لذلـك كنـت ألقـي أشـعاره في كل مناسـبة، وأحيانًـا كثـيرة دون مناسـبة!

وكـبرت، وكـبر معـى حبـي لـه، فـكان يكفينـي أن أراه ولـو مـن بعيـد، كان يسـعدني سـماع صوتـه مباشرا دون حواجـز، وحـين جـاءت اللحظـة التـي انتظرتهـا طويـلا حـين تـم الإعـلان عـن حضـوره أمسـية شـعرية في معـرض الكتـاب، ذهبـتُ مبكـرًا، ولم أكـن أنتظـر سـوى سـماع صوتـه وهـو يلقـي شـعره، وسـمعته حتـى انتهـت الأمسـية ولم أحـاول الاقـتراب منـه، واكتفيـت برؤيتـي لـه، وعـدت إلى البيـت حامـلا بقيـة أعمالـه التـي لم أكـن قراءتهـا، ولم أتوقـف حتـى الآن عـن قراءتهـا.

«٣»

لا أظن أن الشّـعر قد عرف شـاعرًا أَشَعَرَ منه!

حـين تقـرأ كلـمات قصائـده تشـعر أنـه لم يكـن أبـدًا واحـدًا مـن الذيـن يجلسـون عـلى مكاتبهـم ويرتّبـون دفاترهـم لكتابـة القصائـد، فأنـت تشـعر دون أن تعرفـه بـأن قصائـده وُلـدت في سـاحات المعـارك، وداخـل الزنازيـن، وعـلى المقاهـي في بـلاد المنفـى.

فقـد عـاش طيلـة حياتـه يؤمـن بـأن قـدره أن يكتـب قصائـده فـوق الدبابـات، ولم يـرضَ لنفسـه يومًـا أن يجلـس -في أثنـاء المعـارك-

مع الخائفين في الخنادق، لذلك ظل «محمودا» بين الناس، وله «دراويش» من المحيط إلى الخليج يرون أن بإمكان أشعاره أن تغيّر مجرى التاريخ.

قصائده سكنت القلوب، وتركت آثارها في العقول، وصارت كلماته عناوين رئيسية لمن أراد أن يدرك معاني الوطنية، فقد اختار أن يكون الحبر وقودًا للحرب، وأن يكون صوتًا للمقاومة، وسوطًا مسلطًا على أعدائها، وأن تكون قصائده بمثابة ثورة ضد كل قيد، فمنذ ميلاده الشعري قرر أن يكتب القصيدة المقاومة التي تقف شامخة في ساحات المعارك، وقد بدا ذلك واضحًا في كل قصائده، وتحديدا في قصيدته «أيها المارُّون» التي زلزلت الأرض من تحت أقدام سفاحي تل أبيب، وجعلتهم يشعرون بأن القصيدة يمكن أن تكون كلماتها أكثر خطرًا من الرصاص، وسنظل نردد أشعاره مع كل هجمة همجية من العدو الصهيوني على أرضنا ونقول:

أيها المارُّون بين الكلمات العابرة
آن أن تنصرفوا
وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا
آن أن تنصرفوا
وَلْتَمُوتوا أينما شئتم ولكن لا تموتوا بيننا
فَلَنَا في أرضنا ما نعمل
ولنا الماضي هنا
ولنا صوت الحياة الأوَّل
ولنا الحاضرُ، والحاضر، والمستقبل
ولنا الدنيا هنا.. والآخرة
فاخرجوا من أرضنا

للكبار فقط!

نحن الشعب الوحيد الذي يستخدم «المخ» في الساندويتشات!

جلال عامر

جحا القرن العشرين

«١»

«كانـت جنازتى كبيرة ومهولة!

وقـد توقعـت -قبـل وفـاتي- أن تكـون جنـازتى كبـيرة ومهولـة بفضـل عـدد الدائنـين الذيـن سيمشـون ورائى أملًا في معجـزة تعيـدني إلى الحيـاة حتـى يسـتأنفوا مطالبتـى بفلوسـهم»!

هكـذا وصف العم جليـل البندراي جنازته.

وأضـاف: «الصحـف اعتـادت أن تصـف الجنـازات وصفًـا واحـدًا حزينًـا لا يتغـير فلـماذا لا أُسـعِد النـاس بوصـف ضاحـك للجنـازة؟ هــذا هــو الجديـد وأنــا أحــب الجديـد.. الجنـازة فيهـا إفيهـات تفطّـس م الضحـك.. فليـه دايمًـا نبـصّ لهـا مـن زاويـة الدمـوع؟ ومـا ذنـب القـارئ حتـى أزعجـه عَ الصبـح بـكلام حزيـن ومقـرف، أنـا الـذي تعـودت أن أسـليه كل صبـاح وأحـاول أن أرسـم ابتسـامة عـلى فمـه، أليـس مـن الأفضـل أن أودع القـارئ بابتسـامة؟!».

ربمـا لا تكـون سـمعت عنـه مـن قبـل، وربمـا أيضًـا سـمعت عنـه لكـن لم تقـرأ لـه، فكتبـه لم تصـل إلينـا، ومقالاتـه التـي كان يكتبهـا يوميًّـا في الصفحــة الثامنــة بجريــدة «الأخبــار» لم يتــم جمعهــا في كتــاب حتــى الآن، فقــد كان أول مــن كتــب «التويتــة»، نســبة إلى «تويــتر».

فأفـكاره مركَّـزة، وأهدافـه واضحـة، وعباراتـه مكثفـة، وكلماتـه قليلـة، وجُمَلـه قصـيرة لكـن لسـانه كان طويـلا، وطويـلا جـدًّا!

لكنـه رحـل قبـل قرابـة نصـف قـرن بعـد أن مـلأ الدنيـا ضجيجـا، وضحــكا، وأفلامــا، وأوصافــا، وشــتائم، لدرجــة أن «تحيــة كاريــوكا» أطلقـت عليـه لقـب «جليـل الأدب.. وإحنـا بنـدارى عليـه»، وحلفـت ذات مـرة أن تضربـه بالشبشـب، وتعقبتـه في منـزل إحـدى الفنانـات وجلسـت تنتظـر حضـوره ودخـل جليـل فنطـق بشـتيمتين فاسـتغرقت بعدهــما تحيــة في الضحــك!

«٢»

كانــت الشــتائم لازمــة في لســانه، أو كانــت أشــبه بفاصلــة أو «شَــوْلة» بــين عبــارات كلامــه العــادي، وكان يُغضــب النــاس منــه بالشــتائم ثـم يعتـذر إليهـم بالشـتائم أيضًـا -عـلى حـد تعبـير عمنـا أحمـد رجـب- الـذي شـهد وشـاهد مئـات الوقائـع مـع العـم جليـل، ومنهـا حـين أقسـم فريـد شـوقي أنـه سـيرمي جليـل مـن البلكونـة وسـيُطبق ضلوعــه، وذلــك بعــد أن كتــب جليــل أن هــدى ســلطان تــضرب وحــش الشاشــة بالأطبــاق، الأمــر الــذي يهــز صــورة وحــش الشاشــة عنــد جمهــور الترســو.

وذهــب أحمــد رجــب مــع جــلال معــوض ليحــاولا تهدئــة فريــد شــوقي ولكنــه أصر عــلى ضرب جليــل عنــد حضــوره!

ولم يكــن أمامهــما إلا أن يسرعــا إلى بــاب العــمارة حتــى ينصرفــا بجليــل عنــد حضــوره بعيــدًا عــن لكــمات وحــش الشاشــة، ولكــن جليــل أصر عــلى الصعــود، ودخــل عــلى فريــد شــوقى الــذي نظــر إليــه والــشرر يتطايــر مــن عينيــه وإذا بجليــل ينطــق بكلمــة واحــدة فطــس بعدهــا وحــش الشاشــة مــن الضحــك!

ورفــع الفنانــون والفنانــات ٨٠ قضيــة ضــده انتهــت جميعًــا

بالصلـح بعـد أن اعتــذر إليهــم بشــتائمه!

فقـد انتهـى الفنانـون والفنانـات إلى حقيقـة مؤكـدة وهـي أن جليـل البنـدارى هـو صاحـب أطـول لسـان وأطيـب قلـب!

ولعـل أبـرز دليـل عـلى طيبـة قلبـه هـو أن الأغنيـة الأقـرب إلى قلبـه كانـت أغنيـة «مامـا زمانهـا جايـة»، لدرجـة أنـه طلـب مـن صديقـه الموسـيقار محمـد عبـد الوهـاب أن يعلِّمـه عـزف هـذه الأغنيـة عـلى البيانـو، وتعلمهـا بالفعـل، وظـل يعزفهـا كل يـوم حتـى حجـزت الضرائـب عـلى كل مـا يملكـه، وصـادرت البيانـو!

يومهـا كان يتحسـس البيانـو كـما يتحسـس طفـلٌ لعبـةً سـتُنتزع منـه.

«٣»

عمنـا جليـل البنـدارى كان كاتبًـا وصحفيًّـا وناقـدًا وسيناريسـتًا، وله عـدد كبـير مـن الأفـلام التـي مـا زلنـا نشـاهدها حتـى الآن، ونضحـك معهـا وعليهـا منهـا: «العتبـة الخـضراء»، و«الآنسـة حنفـي»، و«بمبـة كـشر»، و«موعـد مـع إبليـس»، و«شـفيقة القبطيـة»، وهـو أول مَـن أطلـق عـلى عبـد الحليـم حافـظ لقـب «العندليـب الأسـمر»، وهـو أيضًـا مَـن أطلـق عـلى أغنيـة «أنـت عمـري» التـي غنَّتهـا سـيدة الغنـاء أم كلثـوم ولحَّنهـا موسـيقار الأجيـال محمـد عبـد الوهـاب «لقـاء السـحاب».

فكلماتـه مـا زالـت حيـة بيننـا نذكرهـا، ونتذكرهـا، ونرددهـا لكـن دون أن نبحـث أو نعـرف صاحبهـا. ورغـم قسـوة التجاهـل وعـدم الاعـتراف بأصحـاب الفضـل والسـبق فـإن هـذه هـي قيمـة المبـدع الـذي تتجـاوز أفـكاره ورؤيتـه حـدود الزمـان والمـكان وتظـل عالقـة

بالأذهـان أبـد الدهـر.

فالمبـدع يظـلّ حيًّا مـا دمنـا نـردد أفـكاره وكلامـه، فهـذا يكفيـه، فهـو يـدرك أن وجـود أفـكاره أهـم كثـيرًا مـن وجـود اسـمه، لكـن وجـود اسـمه مهـمّ لنـا ولأجيـال لا نريـد لهـا أن تفقـد الذاكـرة، والذكـرى.

لكـن المدهـش أن جليـل البنـدارى قبـل وفاتـه كان يهـوى جلسـات تحضـير الأرواح، وذات مـرة لجـأ إلى محـضر أرواح اسـمه الحـاج طلبـة، ليقـوم بتحضـير السـت شـوق البولاقيـة التـي هـام بهـا نابليـون بونابـرت غرامًـا خـلال وجـوده في القاهـرة أيـام الحملـة الفرنسـية. كان جليـل بصـدد كتابـة أوبريـت غنـائي يحـكي غـرام نابليـون بفاتنـة بـولاق، ورأى أن تحضـير روحهـا سـوف يمكّنـه مـن كتابـة الأوبريـت بتفاصيـل تاريخيـة صحيحـة.

ولأمـر مـا تغيَّـب الوسـيط فاختـار الحـاج طلبـة وسـيطا آخـر، وراح يجـري طقوسـه في الغرفـة المعتمـة، ومـا لبـث أن سرت همهـمات غامضـة قـال بعدهـا الحـاج طلبـة: السـلام عليكـم، وردَّت روح شـوق البولاقيـة السـلام، وقدمـت نفسـها قائلـة: أنـا شـوق بنـت عديلـة وكانـوا يدللـوني باسـم شـواشي، بينـما كان نابليـون ينادينـي «شـير.. شـو».

وقالـت شـوق البولاقيـة إنهـا تعرفـت عـلى نابليـون في بيـت منـدور الكحـكاوي، وأنـه أُعجـب بهـا إعجابًـا شـديدًا. وروت شـوق تفاصيـل كثـيرة عـن غـرام نابليـون بهـا، لكنهـا صُدمـت صدمـة فظيعـة عندمـا اكتشـفت أن نابليـون كان يريـد أن يسـتولى عـلى مصاغهـا خصوصًـا خلخالهـا الذهبـي!

وكان جليـل يكتـب كل هـذه التفاصيـل، حتـى اكتشـف أن الوسـيط الـذي قـال كل هـذا الـكلام هـو عمنـا أحمـد رجـب!

أحمد رجب كان أقرب الأحياء إلى قلب عمنا جليل البنداري، وهو أيضًا المصدر الأول، وربما الأوحد في كل معلومة عن حياته الخاصة، لذلك تحدثت معه قبل أن أكتب عن العم جليل.

كان الأستاذ أحمد يعتبر جليل البنداري والده، وكان يُقبِّل يده كلما رآه رغم أنه كان يكتب معه في نفس الصفحة وفي العمود المجاور له في جريدة «الأخبار»!

ضحكات عفيفي الصارخة!

«١»

«عزيزي القارئ...

يؤسفني أن أُخطرك بشيء قد يحزنك بعض الشيء، وذلك بأنني قد توفيت، وأنا طبعا لا أكتب هذه الكلمة بعد الوفاة (دى صعبة شوية) وإنما أكتبها قبل ذلك، وأوصيت بأن تُنشر بعد وفاتي، وذلك لاعتقادي بأن الموت شيء خاص لا يستدعي إزعاج الآخرين بإرسال التلغرافات، والتزاحم حول مسجد عمر مكرم حيث تقام عادة ليالي العزاء.

وإذا أحزنَتْك هذه الكلمات، فلا مانع من أن تحزن بعض الشيء، ولكن أرجو أن لا تحزن كثيرًا».

هكذا نعى الساخر الأعظم محمد عفيفي نفسه، وأصر أن تُنشر هذه الوصية بعد وفاته في جريدة «الأهرام»، ونُشرت بالفعل في ٥ ديسمبر عام ١٩٨١ بعد شهرين فقط من وصول حسني مبارك لكرسي السلطة خلفًا للرئيس السادات.

لكن قبل ٦١ عامًا، وتحديدًا في فبراير ١٩٢٢ كانت الحياة مختلفة.

وقتذاك عاد اللنبي من بريطانيا وحيَّاه الكثيرون في طريقه إلى قصر الدوبارة، وذهب في نفس اليوم إلى الملك فؤاد وسلمه تصريح ٢٨ فبراير، وفيه إلغاء الحماية، وإعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة.

وأعلن الملك فؤاد أنه صار ملكًا بعد أن كان سلطانًا، وتولَّى عبد الخالق ثروت باشا الوزارة وجمع مع رئاسة الوزارة وزارتي الداخلية والخارجية. وتم إغلاق جريدة «الأهالي» وتعطيل جريدة «الأهرام» ثلاثة أيام، و«الأمة» ثلاثة أشهر، والتنبيه على الصحف عدم ذكر اسم سعد زغلول وزملائه في المنفى.

.. وأسس سيد درويش مسرحًا له في الإسكندرية، وكانت مسرحية «شهرزاد» أول مسرحية يتم عرضها عليه.

.. ونجيب محفوظ كان في طريقه إلى المدرسة الابتدائية، وأحمد مظهر أتمَّ عامه الخامس.

.. وقبل عام واحد فقط من ميلاد أول دستور عرفته مصر في تاريخها، وقبل ست سنوات من ميلاد محمود السعدني وأحمد رجب.

وسط هذه الأجواء وُلد محمد عفيفي في يوم السبت ٢٥ من فبراير عام ١٩٢٢ في قرية «الزوامل» بمحافظة الشرقية.

نشأ في أجواء القرية المصرية، وتدرج في صفوف التعليم حتى حصل على ليسانس الفلسفة عام ١٩٤٣، ثم حصل على دبلوم الصحافة عام ١٩٤٥.

وبعد خمس سنوات وتحديدا في مطلع عام ١٩٥٠ عثر على شريكة حياته السيدة اعتدال الصافي، وأنجب منها ثلاثة أبناء «عادل ونبيل وعلاء» طبيب ومهندس ومحامٍ، لكنه يقول عن الزواج: «سيظل الناس يتزوجون إلى الأبد ما دام هناك مَن يظن أنه أفضل حظًّا من الآخرين».

وبعد شهور قليلة من زواجه الذي اختار له نفس تاريخ ميلاده، عمل محررًا في «أخبار اليوم»، وكان مسؤولا عن باب بعنوان «هذا وذاك»، وظل كذلك حتى ٣١ مارس ١٩٦٤، وفي

ذات العام انتقل إلى مجلة «آخر ساعة» وحرَّر فيها بابًا بعنوان «ابتسم من فضلك»، ثم غادر «أخبار اليوم» بعد قرار تأميم الصحافة، ورحل إلى «دار الهلال» مع صديقه أحمد بهاء الدين وظل يكتب في مجلة «المصور» لعشر سنوات، وبعدها عاد إلى «الأخبار».

«٢»

محمد عفيفي هو صورة لجيل بأكمله نبغ في كل شيء، ولم يسع لشيء، فهو صحفي، وساخر، وروائي، وكاتب مسرحي، وله ثلاثة عشر كتابًا لن تجد أغلبها في المكتبات رغم أهميتها وقيمتها الأدبية والفكرية وروعة أسلوبها لكن أجمل ما في كتبه أنك حين تقرؤها لا تتصور أن من كتبها رحل منذ ما يزيد على الثلاثين عامًا فيقول: أحيانا أميل إلى قراءة كتب الخرافات.. بالأمس عكفت على قراءة «ميثاق حقوق الإنسان»!

لم تشغله الحياة بقدر ما شغلها هو بفنه وإبداعه وقدرته على التكثيف والتبسيط والتوصيف والتشخيص لكل ما فيها ومَن فيها، فلم يكتب من أجل أن يحصد المجد أو الشهرة والمال، ولو أراد لحقق كل شيء، لكنه لم تشغله الأضواء ولم ينشغل بها، فهو واحد من هؤلاء المتواضعين العظام الذين لا يشعرون بأن ما يفعلونه يستحقّ الثناء والاحتفاء والتمجيد والتهليل، هو يظن أنه يفعل ما عليه فقط، يكتب ما يعتقده ويجعلك تضحك على طريقته، لذا يوضح الفرق بين المهرج والساخر قائلا: «المهرِّج يجعلك تضحك عليه، والساخر يجعلك تضحك عليكما».

هــذه هــي مدرســته في الســخرية فهــو بــلا عُقــد، ولا يريــد التصنــع أو ادعــاء العلــم رغــم كونــه عليــمًا، ولم يــدَّعِ بطولــة رغــم أنــه بطــلا حقيقيًّــا، كان يفعــل كل شيء ببســاطة وتلقائيــة وخفــة ظــل، لكنهــا بســاطة عميقــة، وتلقائيــة منتقــاة، فــلا يخاطــب القــارئ مــن أعــلى بــرج عاجــي، لكنــه يخاطبــه مــن الكــرسي المجــاور لــه عــلى المقهــى فيقــول لــه: الفــرق بــين اللــص الصغــير واللــص الكبــير، أن الأول يتســلق الماســورة، أمــا الثــاني فيتســلق الموجــة!

ظــل محمــد عفيفــي بعيــدًا عــن السياســة وتقلباتهــا، وظلــت كتاباتــه مرتبطــة بنبــض البســطاء، الذيــن كان يكتــب مــن أجلهــم، ويرصــد معاناتهــم، ويعــبر عنهــم في كلــمات قليلــة لكنهــا كافيــة، لكنــه لم ينافــق القــارئ بــل كان عينــه وقلمــه، لذلــك حــين تفشــت ظاهــرة «الإفتــاء الســياسي» قــال: «بعــض المصريــين يفهمــون في الطــب، وبعضهــم يفهــم في الهندســة، وبعضهــم في الأدب والفلســفة، وبعضهــم لا يفهــم في أي شيء، ولكنهــم جميعًــا يفهمــون في السياســة»!

لم يغــيّر ســيارته الفــورد النبيتــي موديــل ١٩٥١ الكالحــة لمــدة ثلاثــين عامًــا، كان يــترك بابهــا مفتوحًــا لعــل أحــد لصــوص الســيارات يــرقّ لحالهــا فيضــع فيهــا صدقــة جاريــة -عــلى حــد تعبــير الرائعــة ســناء البيــسي التــي ظلــت بصحبتــه داخــل حجــرة واحــدة لعــشر ســنوات كاملــة في مبنــى «أخبــار اليــوم»- ربمــا لذلــك كان يســأل صاحــب الســيارة الفارهــة: «يــا أيهــا الذاهــب إلى صــلاة الجمعــة بالســيارة المرســيدس أتريــد الآخــرة أيضــا؟!».

ووضــع محمــد عفيفــي تعريفــا للمواطــن المــصري قــال فيــه: «إنــه المواطــن الوحيــد في العــالم الــذي يمكنــه أن يمــوت في حــادث تصــادم بــين مرســيدس وكارو»!

ويضيــف: «نعــم، تســتطيع الســيارة الخَرِبــة أن تســتمر في الســير..

إذا وضعتها أعلى طريق منحدر»!

أعتقد أن هذه العبارة تحمل التفسير الوحيد لما نحن فيه الآن.

«٣»

عفيفي عاش زاهدًا، وعازفًا عن الحياة الصاخبة رغم أنه واحد من مؤسسي شلة الحرافيش، ومن أقرب أصدقاء نجيب محفوظ، وقد كتب عن محفوظ مقالا شهيرًا بعنوان «رجل الساعة» وتحدث فيه عن عبقرية الرجل الذي يفعل كل شيء بدقة حتى إنك يمكن أن تضبط ساعتك على مواعيده، فسيجارته على رأس كل ساعة، وجلوسه على المقهى بحساب، وسهرته مع الحرافيش بميعاد، وهكذا كل شيء في حياة نجيب محفوظ.

وحين اقترب الأجل، واشتدّ المرض، ودنا ملك الموت من عفيفي لم يأتمن أحدًا على روايته الأخيرة إلا نجيب محفوظ، فترك له مسودة العمل بلا عنوان، فاختار لها أديب «نوبل» اسم «ترانيم في ظل تمارا»، ونُشرت بعد رحيله.

أعمال عفيفي تنوعت، إذ بدأها بمجموعة قصصية سماها «أنوار»، ثم تبعها بمسرحية «التفاحة والجمجمة»، وبعدها كتب روايته الأولى «بنت اسمها مرمر»، ثم اتجه إلى أدب الرحلات بـ«تائه في لندن» و«فانتازيا فرعونية» و«سكة سفر»، وبينها أرَّخَ لجلسات الحرافيش بروايته «شلة الحرافيش»، لكن يبقى أشهر أعماله هي كتبه الساخرة ومنها: «ابتسم من فضلك»، و«ابتسم للدنيا»، و«ضحكات عابسة»، و«ضحكات صارخة»، و«للكبار فقط».

والحقيقة أنه بالفعل للكبار فقط، فرغم سلاسة أسلوبه وروعة لغته وبساطة كلماته ودقة تعبيراته فإنه اختار أن يكون واحدًا من هؤلاء الكتاب الذين يجب أن تبذل جهدا من أجل أن تصل إلى أعمالهم، فلا يمكن أن تجد كتبه ملقاة على الأرض أمامك على قارعة الطريق، ومن الصعب أن تعثر عليها في المكتبات، وربما الحل الوحيد لهذه المعضلة أن تتم طباعة أعماله الكاملة، لكن هذا وحده لا يكفي، بل يجب تنفيذ ما طالب به مرارًا أستاذنا أحمد رجب وهو إطلاق اسم محمد عفيفي على أحد ميادين مصر، فلا يجوز أن لا تعرف الأجيال القادمة والحالية قيمة كبيرة وقامة عالية مثل محمد عفيفي الذي لقَّبه عمنا محمود السعدني بالساخر الأعظم.

عفيفي حالة متفردة يجب أن تبحث عنها وتسعى لها لتقطف ثمرتها، لتشعر بنشوة القراءة له، وتدرك مقصده حين يقول: في حديقة الحيوان أشعر بأمان أكبر بكثير من ذلك الذي أشعر به في الشارع، فحيوانات الحديقة كما تعلم محبوسة!